الفصل الثاني

الفكر السياسي في العصور الوسطى

المبحث الأول:

الفكر المسيحي في العصور الوسطى

لمحة تاريخية*:

بدأت الديانة المسيحية في الانتشار في أوروبا في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها، وقد بدأ تأثير هذه الديانة في النواحي الدينية والاجتماعية فقط، ولم تعر اهتماما للنواحي السياسية، وقد كانت بداية انتشار المسيحية بين صفوف الطبقات الدنيا في المجتمع التي آمنت بها كنتيجة منطقية لمناداة هذه الديانة بمبدأ المساواة بين كل الناس، ولكن مع مرور الوقت وحين بدأت الامبراطورية في الضعف والانهيار تدريجيا أخذت المسيحية في الانتشار بين كافة الطبقات، ولكن حتى تلك اللحظات بقي تأثير الديانة المسيحية بعيدا عن الحياة السياسية نتيجة لايمان آباء الكنيسة الأوائل بضرورة اطاعة الحاكم تنفيذا لوصية السيد المسيح عليه السلام «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وبقي الوضع كذلك الى ان اعترف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية كديانة رسمية للامبراطورية، حيث بدأت هذه الديانة بالازدهار واصبحت الديانة الوحيدة

---

* انظر تطور علاقة الكنيسة بالدولة خلال هذه الفترة في فؤاد شبل، مرجع سبق ذكره ص ١٦٧-١٧٠.

المسموح بها وتخلت الدولة عن نظرية حرية العقيدة التي كانت سائدة في بداية ظهور الكنيسة، وتزايد دور الكنيسة مع ضعف الامبراطورية وتناقصت سلطة الاباطرة بحيث اصبحت سلطة الكنيسة موازية لسلطة الامبراطور، واتجه دور الكنيسة نحو المحافظة على الوحدة والنظام ومحاربة الفوضى داخل الامبراطورية التي تسير في طريق الانهيار. وتزامن هذا الدور البارز للكنيسة مع ظهور نظام البابوية في الامبراطورية الرومانية حين عين أسقف روما في منصب مستشار للامبراطورية واصبحت له سلطة على رجال الدين في الولايات شبيه بسلطة الامبراطور على حكام الولايات، واقتبست كنيسة روما النظام الامبراطوري في تنظيم علاقتها بالكنائس الفرعية الاخرى. ويؤرخ بروز النفوذ البابوي بتولية القديس جريجوري الاول سنة ٥٩٠ - ٦٠٤م، وتزايد دور البابوات حيث نقلت قيادة الامبراطورية الى القسطنطينية واصبح البابا في روما يتمتع بسلطات دينية وسياسية واسعة.

مما سبق نستخلص بان فترة العصور الوسطى في أوروبا قد تميزت بالصراع الحاد بين الكنيسة والدولة ممثلة في الامبراطورية ومحاولة كل منهما مد نفوذها الى مجال الاخرى للسيطرة عليها واحتوائها، واستمر هذا الصراع لفترة طويلة الى ان بدأت الدولة القومية بالظهور، وبدأ دور الكنيسة في التراجع مرة اخرى، وقد ظهر على طول هذه الفترة مجموعة من الكتاب والمفكرين والقديسين نذكر منهم أمبروز، وأغسطين، وجريجوري، الى أن جاء توماس الاكويني في نهاية هذه الفترة.

ازدواج السلطة «ونظرية السيفين»*:

ظهرت المسيحية كحركة دينية لها نظامها المستقل عن الدولة، وكانت

---

* انظر لمزيد من التفاصيل عن نظرية ازدواج الولاء وازدواج السلطة في:

١- ابراهيم درويش، علم السياسة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٥ ص ٧٩ - ٨٣

٢- بطرس غالي ومحمود خيري عيسى، المدخل في علم السياسة، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٦ ص ٩٦ - ٩٩.

هي المسؤولة عن النواحي الروحية وتسعى لتخليص الانسان من الخطيئة، وكانت تنظر للدولة كمؤسسة مستقلة تستمد سلطتها من الله مما يستوجب خضوع الكنيسة لسلطتها. ومن الملاحظ بأن المفكرين خلال هذه الفترة لم يهتموا بالسياسة كعلم مستقل وبقي يدرس ضمن الدروس الدينية من خلال محاولة أباء الكنيسة توضيح العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، ولكن مع تعاظم دور الكنيسة كما أسلفنا من قبل وتمتعها بسلطة منافسة لسلطة الامبراطور طرحت الكنيسة فكرة «الولاء المزدوج» والتي تدور حول وجوب خضوع المسيحي لنوع من الولاء المزدوج انطلاقا من ازدواج طبيعته فالانسان يتكون من روح وجسد، والروح تتوجه بالولاء نحو خالقها والذي تظهر سلطته في الارض من خلال الكنيسة، أما الجسد فيتوجه بولائه الى السلطة الدنيوية ممثلة في الحكومة الامبراطورية. وانطلاقا من هذه الفكرة أصبح الناس يجدون أنفسهم أمام خيارين أما ان يضيعوا الله وسلطته ممثلة في الكنيسة، واما ان يطيعوا الحاكم او الامبراطور[1]. وظهرت الافكار والمفكرين للدفاع عن كل جهة وتبلورت هذه الافكار فيما بعد الى هيئات نظامية وحصل توزيع للسلطة داخل المجتمع وخرجت الى الوجود «نظرية السيفين أو ازدواج السلطة» على أساس وجود نوعين من الوظائف في المجتمع.

١- وظائف خاصة بالقيم الروحية والخلقية وتتولاها الكنيسة وتراقبها.
٢- وظائف تتعلق بالمحافظة على الأمن والنظام وتحقيق العدالة وتتولاها الحكومة.

القديس أوغسطين

حياته:

ولد أوروليوس اوغسطين سنة ٣٥٤م، في شمال افريقيا في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية تواجه مجموعة من الضغوط والهجمات الخارجية، وقد كان أوغسطين في بداية عهده وثنيا، لكنه اعتنق الديانة المسيحية فيما بعد وعين أسقفا في هيبو في شمال افريقيا، وقد تأثر بأفكار استاذه القديس امبروز الى حد بعيد.

١- سباين، مرجع سبق ذكره ص ٢٦٧.

وقدم القديس اوغسطين معظم افكاره في مجلده الضخم الذي أسماه «مدينة الله» City of God[٢]

نظرته للدولة:

عني القديس اوغسطين ببحث اساليب الحياة الاجتماعية ولم يعر اهتماما كافيا للناحية التنظيمية، وذلك ناتج عن كونه قديسا مسيحيا تأثر بالديانة المسيحية التي لم تهتم بالحياة السياسية القدر الكافي وتصورة مستقلة.

آمن القديس اوغسطين بنظرية الولاء المزدوج التي سبق شرحها والتي تقول بتواجد طبيعتين للانسان من حيث كونه جسد وروح، مما ترتب عليه أن يكون مواطنا لدولتين في نفس الوقت، دولة الارض والتي تتمثل في الدوافع الدنيوية وتستهدف التسلط والتملك، ودولة الله وهي التي تستخدم السلام والخلاص الروحي[٣]، وقد حاول القديس أوغسطين أن يقيم توازنا ما بين هاتين الدولتين وان يميز ما هو روحي وديني وما هو جسدي وسياسي. كما حاول تفسير التاريخ البشري على أنه وليد الصراع ما بين دولة الله أو دولة المسيح ممثلة في الكنيسة والتي تسيطر عليها قوى الخير المستمدة من الروح، ودولة الأرض أو الشيطان - كما أسماها - القائمة على الشر الناتج عن غرائز الانسان الجسدية، وقال بأن هذا الصراع ما بين المدينتين سوف يستمر الى يوم القيامة، ومن الملاحظ بأنه على الرغم من مهاجمة القديس أوغسطين للدولة الزمنية القائمة فانه لم يرفضها واعترف بفضلها في تدعيم المسيحية، واعتبرها شر لا بد منه.

نظام الحكم:

اعتقد القديس اوغسطين بان الدولة الحقة هي التي تقوم على المسيحية، وقال بانه اذا ما اعتنقت الدولة الديانة المسيحية فان الكنيسة ستكون هي

٢- محمد طه بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، الكويت بالاشتراك مع دار العلم بيروت، ١٩٧٩، ص ٣٨.

3- Sibley, Mulford. Q., Op. Cit., P. 186-188.

الحاكمة وتكون الدولة حينئذ دولة وكنيسة في نفس الوقت وهي القادرة على تحقيق العدالة.

وقد تبنى القديس أوغسطين فكرة وحدة الأمم المسيحية «Christian Commonwealth»[٤] من خلال قيام امبراطورية مسيحية عالمية يسودها العدل والسلام.

القديس توماس الاكويني:

حياته:

عاش القديس توماس الاكويني ما بين سنة ١٢٢٥ - ١٢٧٤م، أي في نهاية العصور الوسطى، ويعتبر القديس توماس الاكويني من أشهر الفلاسفة السياسيين في العصور الوسطى، وقد حاول الجمع بين النظرية السياسية القديمة مثل نظريات ارسطو وشيشرون وبين التيارات المسيحية الرومانية التي تستمد اصولها مما جاء في الانجيل وكتابات القديسين الأوائل.

نظرته للدولة ونظام الحكم:

يرى القديس توماس الاكويني بان النظام الطبيعي مرتب بشكل تصاعدي يمتد في درجات تبدأ من الاله في القمة ويتدرج الى اسفل القاعدة التي تكون أدنى المخلوقات، وأن كل كائن في هذا النظام يعمل حسب طبيعته، وأنه من الطبيعي أن يسيطر الأعلى على الأدنى وأن للانسان قيمته لانه يتميز بالعقل والروح، وقد آمن بان الانسان اجتماعي بطبعه تلك الفكرة التي نادى بها أرسطو - وقال بان هذه الفكرة بالاضافة الى فكرة تفوق بعض الافراد في المعرفة والحق هما الاساس في قيام الحكومة والتي تنبثق عن الجماعة باعتبارها الوسيلة الخاصة لرعاية الصالح العام، وأن مهمة الدولة تعتبر شرعية من ناحية الاحتياجات البشرية، ولكنها يجب الا تقتصر على ذلك، ويجب ان تمتد لتشمل

٤- علي عبد القادر، مذكرة الفكر السياسي في العصور الوسطى، جامعة القاهرة، بدون تاريخ ص ١٤.

ارضاء الله وستكون هذه المهمة مهمة رجال الكنيسة في المقام الأول[٥].

وقال بأن الهدف الاخلاقي للحكومة المتمثل في اسعاد الناس وتحقيق السلام وحفظ النظام يستوجب ان تكون السلطة محدودة، وأن الحكم أمانة في عنق الجماعة والحاكم معذور في كل ما يفعله لأنه يستمد سلطته من الله و يساهم في الخير العام[٦].

ولذلك فهو يدعو الى احتمال الحاكم المستبد و يرفض الثورة عليه لأن ذلك سيسبب الفوضى في المجتمع[٧].

نظرته للقانون:

أكد توماس الاكويني على مبدأ سيادة القانون وقدسيته وأن سلطة القانون أصيلة وكامنة فيه وهي ليست من صنع الانسان، وحاول اثبات العلاقة بين القانون السماوي والانساني، والقانون في رأيه جزء لا يتجزأ من نظام الحكم الالهي الذي يسيطر على كل شيء في السماء والأرض، ولذلك فان القانون هو الذي يميز الحكومة الصالحة عن الحكومة الفاسدة وأن مخالفة أحكام القانون ليست أعتداء على حقوق الافراد فقط وانما اعتداء على النظام الالهي المدبر للكون، وقد قسم القوانين الى أربعة قوانين احدهما انساني هو القانون الوضعي وثلاثة اخرى لا يتدخل الانسان فيها وهي[٨]:

١ـ القانون الأزلي (الابدي).
٢ـ القانون الطبيعي
٣ـ القانون الالهي.

٥ـ ابراهيم درويش، مرجع سبق ذكره ص ٨٨.
٦ـ محمد فتح الله الخطيب، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.
٧ـ بطرس غالي، ومحمود خيري عيسى، مرجع سبق ذكره ص ١١٦.

8- Barry, Norman- An Introduction to Modern Political Theory The Macmillun Press Ltd. London. 1981,p. 25.

obeikandl.com

طبيعة الفكر السياسي المسيحي خلال العصور الوسطى وخصائصه:

في الغالب لم يكن الفكر السياسي في العصور الوسطى يقوم على أسس علمية، ولم يعرف الفكر السياسي خلال هذه العصور التحليل العلمي لظاهرة السلطة الا نادرا في بعض الآثار المتفرقة لكل من القديس أوغسطين او توماس الاكويني أو غيرهم... وعلى العكس من ذلك كان الفكر السياسي خلال هذه الفترة يدور حول معتقدات جامدة مستمدة من الديانة المسيحية و يقوم على فكر رجال الدين غير القابل للنقد بعيدا عن الخضوع للمنطق القائم على المشاهدة والاستنباط والتجربة والبحث[٩].

وتركزت الافكار السياسية خلال هذه الفترة حول توضيح العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية واتجهت نحو تبرير سيطرة الكنيسة وسيادة البابا الروحية المستمدة من وحدة الكنيسة على السلطة الزمنية وضرورة خضوع السلطة الدنيوية والملوك لها لتنشأ امبراطورية مسيحية تسيطر على أوروبا جميعها. وقد تبلورت هذه الفكرة فيما بعد على يد دانتي الايطالي من خلال دعوته لقيام حكومة عالمية.

وأخيرا يمكن تلخيص خصائص الفكر المسيحي فيما يلي[١٠]:

١- أنه يعمل على تحقيق التكامل بين العقل والايمان، ويحاول التعبير بصورة حقيقية عن المعتقدات التي يؤمن بها تطبيقا للعبارة المشهورة أؤمن لأتعقل.
٢- ان الفكر السياسي خلال هذه الفترة كان محدود المشاكل التي شغل بها وهي تتعلق بعلاقة الانسان بالخالق في المقام الاول واعتبرت المسائل الاخرى ثانوية.
٣- الايمان بوحدة الفكر والانسان وعدم امكانية التفريق بين اجزاء العقل

٩- محمد طه بدوي، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠-١٩٥.
١٠- نفس المرجع ص ٥ - ٦.

البشري فالفيلسوف المسيحي تكون فلسفته مسيحية وأن الشخص مرتبط بالفكرة والفكرة تتأثر بالشخص الذي اتى بها ولهذا فانه يجب ان يكون للفكر المسيحي طابعه المميز.

obeikandl.com